ادبنا الملتزم

بقلم محمد وصبي

الالتزام فكرة ذائعة اليوم حول السلوك او الطابع المثالي للأدب ، بحيث يكون ذا رسالة منبثقة عن مقتضيات الحياة الاجتماعية ؛ ويقيني انها خير سبيل يكتسب به الأدب قيمة حقيقية ، على ان يكون هذا الالتزام كاملاً ، فلا يقتصر على مجال الوصف والتحليل ، كما درج اعتبار الأدب في معظم الظروف ، ولكن يتعدى ذلك الى مهمة التقويم وتعيين المبادىء والتصاميم الواجب الأخذ بها. فلو اكتفى الأديب بالتصوير ، لما كانت مهمته بذات موضوع، ولما اختلف عمله عن عمل آلة التصوير السلبي ؛ إذ الوصف والتصوير وسيلة لا غاية ، فما قيمتهما إن لم يهدفا الى التعليل ثم التقويم ؟ وإذا اكتفى الأديب ، وهو رجل الفكر ، بالقيام بوصف الحياة ، فلمن هو يصف ، ولمن يترك مهمة استخدام الصور التي يقدمها من اجل تحقيق عمل التقويم

تسود فكرة الالتزام الأدبي في عالمنا العربي ، ولكنها بإزاء ما يغمر هذا العالم من اعمال ادبية ، تظل يتيمة، لا صدى حقيقياً لها ، ولا ظل لها في حيز الواقع .

إن نظرة واحدة الى الحياة العربية ، مهما تكن خاطفة ، تنبىء عن وجود حالة شاملة وبارزة بروزاً فاقعاً ، هي التأخر الذي يصم كافة مجالي هذه الحياة . ومنطق الالتزام يقضي بان تكون هذه الحالة هي الموضوع الرئيسي للالتزام : فتأخر العرب هو الموضوع الأصيل الذي يجوز حقاً وصفه بانه من صميم الحياة العربية ، والذي ينبغي ان تذوب في معالجته اقلام الكتّاب وتبرى . على ان ما نلمسه في النتاج الأدبي ، هو ان الاتجاه العام في غير هذا السبيل ، بل انه على النقيض منه في اكثر الأحيان،إذ يعمل على هدهدة الأوضاع الراهنة وإطرائها، وتجاهل كونها ذاتها مشاكل في الصميم ، لا بل أم المشاكل . ويقوم اتجاه الهدهدة وسط اتجاهات متعددة لاغية ، تتركز في معنى التجاهل التام للالتزام ، وما ينبغي ان يكون به الالتزام، ويذوي فيها الفكر على مومياء فنون الأدب المحنطة من غزل وتشبيب ، او سرد لوقائع من وحي الصدفة والمطابقة في قصص خاوية ، او تفلسف صبياني حول توافه الأمور .

اما قضية تأخر العرب، فانها لا تحظى حتى بمجهود الوصف، إذ انها ليست بعدُ فيما يوحيه النتاج الأدبي قضية ؛ وإذا تطرق اليها الوصف في النادر ، لم يعط عنها غير صور زائفة . فمنذا الذي عُني حتى اليوم بموضوع التأخر العربي ؟ إن الشواهد تشير الى ان هذا الموضوع ليس له ان يفوز بشيء من العناية ، فالتأخر العربي محتجب عن الوعي ، او على الأصح ، الوعي مختف في ظلال هذا التأخر . وليس أدل على ذلك مما سمعناه في الآونة الأخيرة من اديب معروف بانه من جهابذة الأدب العربي وشيوخه ، لا يهمني ذكر اسمه ، ولكن يكفيني ان اسمه يُقرن عادة بعبارة « الكاتب الكبير » على نحو ما تُطلق الألقاب العلمية : وقف هذا الكاتب الكبير في إذاعة القاهرة ، وجعل يعلق على تصريح لأحد المستشرقين حول موقف العرب من المدنية الحديثة ، قال فيه ما معناه « أن العرب بمعتقداتهم وتقاليدهم يقفون في وجه المدنية » . وبعد ان أكد اديبنا ان ما يقصده ذلك المستشرق ومن على شاكلته من الغربيين بالمدنية ليس إلا « الاستعمار » ، وان ما يعنونه بالوقوف في وجه المدنية إنما هو « التمرد على الاستعمار » الذي يُبديه العرب ، بعد ان أكد هذا الاستنتاج الواهي الذي لا رابطة فيه ، اذ لا شأن للمدنية بالاستعمار ، ولئن ادّعى الاستعمار نشر المدنية ، فليس معنى دعواه ان تصبح المدنية هي اياه ، قال بصوته الرنان ويملء فيه ، وكأنه يستشعر ما ستُحَدِّثُ به عن قولته الأجيال القادمة بالفخر والثناء والامتنان : « اذا كان هذا هو الواقع حقاً ، فحبذا هذا الوقوف في وجه المدنية ، ونعم ما هو » ، ثم راح يستطرد في تفنيد الاستعمار ومهاجمته ، وهكذا استطاع مرة واحدة ان يحجب عن نفسه حقيقة الموضوع بهذا الخلط الأدبي الذي لا طائل تحته ، مع ان المستشرق اراد ان يعني ان العرب لم يهضموا المدنية الحديثة ولم يتمثلوها ، وهو ادعاء وجيه جدير بالدرس والتأمل ، وكان الأحرى بأديبنا ان يحاول الافادة منه بوصفه تنبيهاً ولفت نظر ، ان لم تَقُدْهُ بصيرته من تلقائها الى مثل فحواه ، بدلاً من اعتبار غرضه مجرد التشهير ، ومن انفاق الوقت في الهجاء الذي لا يستطيع النيل من الحقائق .

وموقف هذا الأديب ليس الا عيّنة من كثير ، بحيث ان

موضوعاً جوهرياً خطيراً كموضوع التأخر العربي ، تنبثق خطورته عن اتصاله الوثيق بكيان العرب ومستقبلهم ، قد غدا بفعل إهماله ، لا بل الاصرار على تجاهله ، معضلة مضاعفة الخطورة ويزيد من تعقد هذه المعضلة ايضاً ما يبديه بعضهم بين الفينة والفينة من آراء حول وجود تأخر عربي لا يدرون كيف يحددون مفهومه ، والتحديد هنا لب الموضوع ، ولكنهم يضربون اخماساً لأسداس ، ويُتمّون بذلك طمس الحقيقة .

يتحدث بعض هؤلاء عن النقص في المتعلمين وعن ضرورة اقتباس العلوم ونشرها ، وحملة الشهادات العلمية فينا كثير ويزيدون باطراد ، في حين ان التأخر قابع مقيم . ويطنب بعضهم في الكلام عن فساد الاخلاق ووجوب اصلاحها ، مع ان التقاليد الاخلاقية المحلية التي ينادون بتعزيزها مصونة على العموم وفق ما يسمح به الامكان . ففيم الحديث إذن ، وأين اصالته ؟ وهل في هذا ما يوحي بانه ضرب من الجد ، او انه وليد ايمان برسالة ؟

الواقع ان مفهوم الرقي كضرورة يقضي بان يكون واجبنا لا ان نتعلم اليوم ، ولكن ان نتعلم الايمان بالقيم التي انبثقت عنها العلوم ، ولا ان نتفقه بالقواعد والسنن الاخلاقية ، ولكن ان نتفهم ونؤمن بالقيم التي استندت اليها هذه القواعد والسنن في جميع العصور . ما قيمة المتعلم الذي ينصرف بعد تلقي ثقافته الى وقف استخدام هذه الثقافة على شؤون معيشته الخاصة ، اي شؤون الربح التجاري ؟ وما قيمة الرجل الاخلاقي الذي ينحصر سلوكه في المطابقة الشكلية مع القواعد المأثورة التي لا تتصل في حد ذاتها بغير أحوال خاصة من الحياة ضئيلة العدد ، في حين أنه ينتهك مفهوم الأخلاق في ما عدا هذه الأحوال ، لجهله الاصول والجذور التي صدرت عنها القواعد المأثورة؟ ان ما يبدو انه لم يزل مجهولاً لدينا ، هو ان المتعلم يظل جاهلا ما لم يتعلم الايمان بالحقيقة كحقيقة مطلقة ، والسعي اليها بإيمان واخلاص ، وأن السلوك يبقى بعيداً عن الصفة الاخلاقية ما لم يستوح القيم التي انبثقت عنها القواعد ، وليس القواعد ذاتها . لنذكر ان قانون التطور قد جعل القواعد الاخلاقية عرضة للتبدل والزوال ، وحتى الحقائق العلمية في تحول مستمر ، في حين ان الذي يصمد ويدوم ثابتاً هو القيم التي نهضت وتنهض ابداً عليها الاخلاق والعلوم .

إن حقيقة فقرنا ليست في المثقفين بالعلم وعددهم ، ولكنها في القوة الروحية . إنها ليست قضية مقدار ، بل قضية نوع . وعبثاً نحاول تغطية فقرنا هذا بالاقتصار على زيادة عدد المتعلمين ، خصوصاً وأن الشواهد الماثلة تدحض حجة هذا الاتجاه السطحي ، إذ اننا بعد عشر سنوات من التحرر السياسي أخذنا فيها بهذا الاتجاه ، لم نلمس في جيش المتعلمين والمتخصصين قوة روحية تدمغه ، ولا قوة روحية تصدر عنه الى هذه الشعوب الرازحة تحت عبء الرجعية . ذلك الى ان ما نحتاجه لا يُدرّس في المدارس ، إنه ليس تعاليم ونصوصاً تُلقى في الأذهان للحفظ والاستظهار ، وهو ذا شأنه ايضاً عند الأمم الراقية ؛ إنما هو روح تنبثّ في النفوس « عبرَ » الثقافة والعلوم ، وتتشكل عاداتٍ وتقاليد ومثلاً تنطبع في أبسط امور الحياة اليومية ، وتنتقل من جيل الى جيل على نحو ما تفعل الوراثة ، بحيث ان الفوارق بين ما ندعوه هنا بالخاصة والعامة تنمحي امامها ، ليظل منها فارق وحيد لا يتصل بهذه الروح ، بل بالمادة العلمية من حيث الكم والمقدار فقط . ونستطيع ان نأخذ مثالاً على هذه الروح إذا قارنا بين رجلٍ أُمّي من البلاد « السكندينافية » ورجل أمي عربي ، أو بين عالِم غربي وبين آخر مثله — أو بالأحرى مماثل له — عربي ؛ فمن مراقبة المثل الأعلى والأحكام التقويمية عند كلٍ من هؤلاء ، بل من نظرة أتفه تصرفاته الخاصة ، تتجلى لنا شقة الاختلاف ، وسعة البون ، كما يتضح لنا ان العلم والفن والأخلاق ليست كل شيء ، وأن الاصل والاساس إنما هو في روح العلم وروح الفن وروح الاخلاق ، التي تحدد جميعاً روح الرقي .

والذي يبدو انه العنصر الأول في تكوين روح الرقي هذه ، هو تعزيز الغيرية وإنكار الذات على حساب الأثرة التي تمهر نفسية الرجل البدائي . فمن الراهن ان العلم في جوهره لا يتعرف على الأثرة مطلقاً ، فهو لا يعرف تبعية لانسان او وطن او زمان ، ولو كان لهذه التبعية ان تكون لما كان ، ولما كان الرقي . لذا نجد انه بفضل هذا العنصر الأساسي ، تتحول المثل العليا من حيز الانطوائية الفردية ، الى مجال الايمان بقيمة المجموع ، وتتفلت من قيود الجسد لتعمل للقيم المطلقة ، بحيث يغدو ممكناً للعالم ان يصدف عن استخدام علمه في منفعة شخصه فقط ، ليلج باب التضحية في سبيل المجموع حتى بحياته ، كما يفعل اليوم ، في عصرنا الموسوم عنوة بالمادية ، رجال في مقتبل العمر وفي ظروف اجتماعية ممتازة ، هناك . . في عالم الغرب . ولا سبيل

التمايز في العلم

بقلم : لويس دو برولي

يتم تقدم العلم ، بفضل مؤازرة عدد كبير من الجهود الفردية ، التي يجريها بحّاثون ، هم مع اتحادهم الكلي لانجاز عمل مشترك، يختلفون فيما بينهم ، بميولهم واستعداداتهم ، ووجهات عقليتهم ، وطرق عملهم المختلفة واحياناً المتعاكسة .

ويمكننا ، في اول الامر ، ان نفرق بين النظريين (les théoriciens) والاختباريين (les expérimentateurs) بين اولئك الذين يميلون خاصة الى الافكار المطلقة ، ويبحثون عن مركّبات المواضيع (synthèses) والنظرات الاجمالية الجريئة تارة ، والمغامرة طوراً ، وبين هؤلاء الذين في تطاحنهم مع صعوبات مادية بلا هوادة ولا ملل ، يطلبون الى الملاحظة والاختبار ، ان يفشيا لهم تدريجياً ، اسرار الطبيعة .

تناقض قائم بين هذين النوعين من البحاثين . فالنظري ، هو في الاصل ، حليف التفكير والتأمل . مسرح نشاطه الاعتيادي غرفة عمله ، كما ان تفكيره اكثر تجريداً من الاختباري ، وقد يلجأ بكل طيبة خاطر ، الى النظريات الرياضية واساليبها التي تستعملها . بينما نجد على عكس ذلك ، ان المختبر هو الاطار العادي لاعمال الاختباري ، وعندما تجبره مادة ابحاثه ، ان يلاحظ او يختبر خارج مختبره ، فهو دائماً ملزم على التجهز بأدوات القياس واجهزة مختلفة تنشىء حوله جو المختبر . وهكذا ، ولاتصاله الدائم بالحقيقة الفيزية ، ومقاومته لجميع الصعوبات التي تثيرها إيضاحات النصوص الاختبارية ، والشك الملازم في ان يتلافى الاخطاء القياسية ، والشروح المتعسفة ، يتقدم الاختباري بحكمة ، رافضاً على العموم ان يمنح ثقته الوجهات النظرية ، غير طالب من الحساب إلا الاستعلامات التي يراها ضرورية موجبة . وهو إذا ما لجأ الى التصوّرات النظرية ليدير ابحاثه ، فغالباً ما يكون ذلك في قوالب بسيطة نوعاً ، كما كانت الحال سابقاً عند فاراداي (Faraday) . قوالب ، قد تضحك احياناً النظريين ، المولعين بالضبط والتدقيق . كما انه بالعكس ، كثيراً ما يجد الاختباري ايضاً عمل النظري ، جد صناعي ، وجد بعيد عن القدرة على ان يأتي بتفصيل دقيق لتشابك الاحداث الملاحظة .

ولكن مع ذلك ، وُجد في الماضي ، ويوجد ايضاً في الحاضر ، علماء هم في آن واحد ، اختباريون بارعون ، ونظريون

الى إنكار أنه بغير هذا العنصر لا رجاء في حدوث الرقي ، إذ لا امل في صدور اية قوة روحية عن رجال العلم الناضب ، بل انه بغير هؤلاء قادر على ابداع قوة روحية فعالة ، تكون بدورها سبباً في إحداث النشاط العلمي وتحقيق الرقي المتكامل .

وهكذا نرى كيف ان للعجب ان يمتلكنا بعنف وقوة ، حين نسمع بكُتّاب يبغون الالتزام ، فلا يجدون غير الاستعمار او نحوه كموضوع للتناول يبذلون فيه الجهد دون جدوى حقيقية ، مع ان الاستعمار قد جلا عن البلاد او هو في طريق الزوال ، في حين ان ما ظل راسخاً فيها ، وما يجدد تأخرها ويمهد الأسباب لعودة النفوذ الأجنبي ذاته او بقائه ، هو استعمار الاثرة في النفس ، واستعمار السطحية في الفكر ، وكلاهما في الشكل والفاعلية سواء إن لم نقل صنوان .

إن للأديب رسالة مقدسة في الحياة ، ليس له ان يشوهها ويضع من قدرها بتجاهل الواجبات الاصيلة التي تلقيها على عاتقه . وهذه الرسالة القائمة في حلقاتٍ متضامنة بعضها في بعض ، تتصل أدناها ببيئته المحلية المسماة بالوطن ، وتحيط اعلاها بالوجود الانساني العام ، تحتم عليه ان لا يحيد عن ربط مجهوده بكلٍ من مشاكل أمته ومشاكل النفس الانسانية وما يجري بينها من مسائل اخرى يثيرها الفكر الحر ، وذلك في نطاق الزمن الذي يعيش فيه . فليس له ان يُحيل مهمته الى مجرد صناعة ألفاظٍ يُسوّد بها الورق الابيض ، بحيث يفضله عندئذ اي صانع « أشياء » كصانع الالبسة او الحلى او التحف الأثرية ، لأن حقيقة حرفته التي أداتها الفكر وموضوعها الانسان في شتى ظروف وجوده ، إنما هي صناعة القوة الروحية ، ولأن مدى نجاحه في هذه الصناعة هو الذي يحدد معنى حرفته .

من معين هذه الشروط يستمد الأدب قيمته ، وبالاستجابة لها فقط يكتسب صفة الالتزام ، ومن ثم القوة . لذا ، لسنا ندري كيف نصنّف في مجال هذا الاعتبار ، أدبنا العربي المعاصر .

محمد وهبي